

من كنوز صنعاء القديمة:

الحمامات البخارية.. أصالة تحمل بين ثناياها عادات متراكمة منذ القدم

وللحمامات وقع اجتماعي لدى أوساط سكان صنعاء القديمة فهي ترتبط بتقاليد وعادات مجتمعية محببة لأهل صنعاء القديمة، وعي أيضاً تمثل أهمية من الجانب السياحي بحيث تشكل عامل جذب لسياحة ضمن المعالم الموجودة في صنعاء والتي تتوزع وتتنوع في شوارع وحارات صنعاء القديمة وتسمى باسم الحارات والإحياء التي تقع فيها وتتخللها البيوت والمساجد حاملة سمة صنعانية بحتة..

استطلاع/ نجلاء الشعوبية

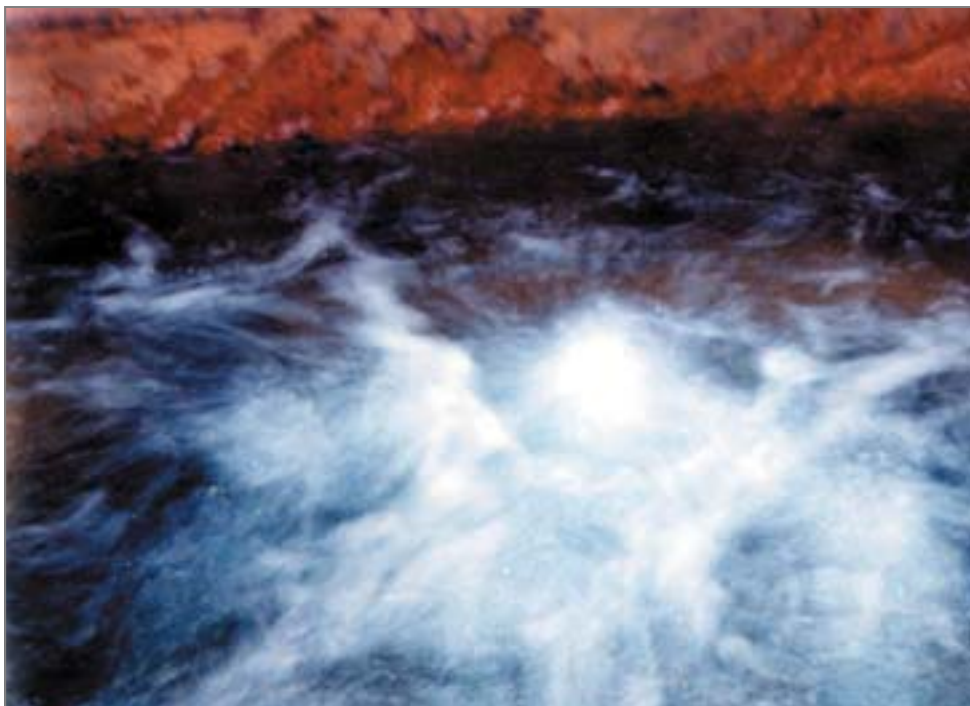
الحياة الصناعية تمتلك ميزة تخصصية رائعة تحمل في طياتها ألوان وروائح العبق التاريخي والحضاري والمجتمعي تتجلى في صنعاء القديمة، ومن ضمن تلك الأجواء والمعالم الحمامات البخارية الشعبية التي تنتشر في أحياء وأزقة وحواري صنعاء القديمة وهي من أهم المعالم التراثية الرائعة التي تحمل رونقاً حضارياً جميلاً وخصوصية تراثية فريدة لا يشعر بها إلا من خرج من بوابة الحمام بعد ساعات من التعرق والاسترخاء للحرارة الدافئة التي تولد نوع من النشاط والحيوية والشعور بالهدوء النفسي والجسدي،

حمامات صنعاء عند الرازي
ذكر الرازي في كتاب (تاريخ صنعاء) وجود ١٢ حماماً شعبياً في صنعاء القديمة، أشهرها حمام الحميري وحمام الأبرار وحمام الجلاء، والقراني وحمام القوعة وسبأ ويأسر الذي كان يعرف باسم ينعم نسبة لأحد ملوك الحميريين، ومن الحمامات البخارية في صنعاء حمام السلطان الذي يقع في حي بستان السلطان غربي السائلة بصنعاء القديمة وهو أقدم الحمامات العامة التي تمثل النموذج للموروث التاريخي، وأسمي باسم السلطان "طغتكين بن أيوب" الذي توفي في عام ٢٩٥هـ وقدر بمدينة تعز، وقد وجد بنائه الإمام المهدي عبدالله المتوفي ١٨٦٧م.
ومن أشهر الحمامات أيضاً حمام شكر، وهو من الحمامات القديمة التي يرجع تاريخها إلى ٧٧٩هـ - ٥٩٦م ويعتقد بأنه كان حمام خاص باليهود أو أنه بني على أنقاض معبد يهودي، ويقع شرقي السائلة في الشارع المقابل لحيّة المهدي، بالإضافة إلى حمام الطواشي: نسبة لاسم مبعوث من سلطان الهند لحمد باشا الوالي العثماني باليمن يذكر بأنه أثناء إقامته تم بناء الحمام والمسجد المعروفان باسم الطواشي ويتميز هذا الحمام بفوائده الطبية ومغطسة العميق.

أما حمام الميدان: الذي تم بناؤه من قبل الوالي العثماني حسن باشا الوزير سنة ١٩٣٠م حيث بناه على الطراز المعماري اليمني برغم إجراء بعض التعديلات والإضافات التركية، ويرجع تاريخه إلى ما قبل القرن العاشر للهجرة، وكان خاص باليهود في الحي الذين كانوا يسكنون فيه شرقي السائلة قبل نقلهم إلى قاع اليهود أيام حكم الإمام المهدي أحمد بن الحسن ١٩٨١م، وعرف هذا الحي وعرف هذا الحي بالجلاء ومن الحمامات الشهيرة حمام المتوكل الذي يعتبر من الحمامات المشهورة في صنعاء ويقع في منطقة باب السباح شمالي قبة المتوكل، وقد تم ترميمه عام ١٨٥٢م على يد المهدي عبدالله بن المتوكل أحمد ولا زال على حالته كما هو إلى اليوم، ويوجد العديد من الحمامات التي تحمل أسماء صنعاء القديمة مثل حمام سبأ وحمام ياسر ومما من أقدمها، وحمام سوق البقر والبونينة وفيش والعرضي وغيرها، وحسب متطلبات السكان تم بناء حمامات شعبية خارج صنعاء القديمة منها حمام النور جنوب باب اليمن، وحمام الجراف، وحمام الخاوي جنوب ور العرضي.

الأثر الصحي للحمامات
وحسب دراسات طبية فإن للحمامات البخارية الشعبية فائدة طبية في أغلب الأوقات بحيث يؤثر على تدفق الدم إلى سطح الجلد حاملاً الأوكسجين القوي والمواد المغذية، وتفتتح مسام الجلد، ويبدأ الجسم بالتعرق ساعياً لتبريد حرارته، لأن زيادة حرارة الجسم في صدفته الخارجية يؤدي إلى استرخاء العضلات، ويساعد على إزالة المواد السامة من الجلد، لأن الحرارة التدريجية والتدليك بطريقة تقليدية والغسل بالاحق بالماء البارد والفوائد المرجوة من هذه الحمامات تنشيط الدورة الدموية وفتح المسامات الجلدية وإرخاء وسط العضلات المتشنجة وإزالة الرواسب والمواد السامة من الجسم، بالإضافة إلى التخفيف من آلام المفاصل والأمراض والتصلب والروماتيزم، إلا أنه توجد تحذيرات من حمام البخار إذ ينصح المصابين بأمراض القلب أو ارتفاع ضغط الدم أو السكري وينصح بعدم دخول الحمام الساخنة مباشرة الأكل إذ أن انتقال بعيداً عن الأعضاء الداخلية باتجاه الجلد، قد يؤثر على عملية الهضم، ويفضل إن يشرب المستحمون عصائر كثير مثل عصير الطماطم والبرتقال والموز لأن الجسم يخسر خلال فقدان الماء، بعضاً من البوتاسيوم، ويجب الحرص على كبار السن من ارتداء الحمامات البخارية لأن أعينهم يعانون من الأمراض السائدة مثل الربو والاضائفة التنفسية والهبوط في الدم وغيرها، إلى جانب أنهم عرضة للعدوى والتحصن.

المشاكل الحالية امام الحمامات
وتتعرض الحمامات الشعبية في الأونة الاخيرة لعدة مشاكل حديثة منها قلة المياه وشحة الوقود لتشغيلها، إلى جانب فقدان الوعي لدى أغلب الناس بالمحافظة على البيئة والنظافة، بحيث أصبحت الحمامات مصدر إزعاج للكثير من مرتديها نتيجة الإهمال والاستهتار من قبل الزبائن سوء رجال أو نساء، وعدم المحافظة على النظافة بحيث تترك تصور سيء لدى البعض بأن الحمامات البخارية لم تعد بذلك الرويق والجمال التي تبحث عنه النفس للراحة والاستجمال والنظافة، ورغم ذلك تظل الحمامات البخارية بصنعاء القديمة ذات لون حضاري وتراثي جميل يعتنز بها بها المجتمع الصناعي واليمني كاملاً، فإن كنت في صنعاء القديمة أو زرتها تسمى الاستجمال بأحد حماماتها التراثية والتعرق والاطلاع على عبق التاريخ الذي لن تنساه أبداً.



تعطى باهتمام خاص لدى سكان المدينة التاريخية

السلطان، وحمام شكر، وأهمها حمام الأبرار الذي بناه الوالي العثماني حسن باشا سنة ١٥٩٧م بحيث كانت وجهة نظر القدماء بإنشاء الحمامات في المناطق الباردة لذلك وجدت هذه الحمامات في صنعاء القديمة باعتبارها منطقة باردة وبالذات في فصل الشتاء.

عادات وطقوس
للمجتمع الصناعي خصائص وعادات يتميز بها عن غيره من المجتمعات وبصورة حضارية وراقية استطاع الإنسان الصناعي أن يكيف التراث لخدمة تلك العادات الجميلة التي ارتبطت بطقوس الحمام البخاري الذي لا يقتصر على الاستحمام فقط أو توفر المياه الحارة مع الجو البارد في فصل الشتاء، بحيث أن تنظيم الأوقات للحمام ليس بالشئ الفوضوي أو العشوائي وإنما يكون موزع عبر جدول زمني معينة يتم تحديده أيام الأسبوع وتقسيم الفترات منها ما تكون خاصة بالرجال وفترات خاصة بالنساء، بحيث يكون لكل منهم أوقات محددة، ويتم توزيع مهام الحمامي على أفراد أسرته سواء كانوا ذكورا أو إناثا وتكون الإدارة لعدد من الأسر يتناوبون فيها الإشراف وتقديم الخدمات قد تكون لمدة شهر أو أسبوع حسب الاتفاق بينهم وبطريقة مستعمدة من وزارة الأوقاف باعتبار أن الحمام مبانى موقوفة لله تديرها وزارة الأوقاف، وترتبط فترات الذهاب للحمام بالطقوس الصناعية بحيث تختلف جهات نظر المتحممين في اختيار الوقت المناسب للاستحمام منها ما قبل الفجر، ومنهم من يفضل بعد صلاة العشاء والاكتر تفضيلاً هو وقت الظهيرة يوم الخميس قبل تناول وجبة الغداء أو بعدها اعتقاداً منهم بأنه يسبب راحة ولذة بعد الخروج من الحمام والاستمتاع بيوم الإجازة وبالذات إن كانوا مجموعة من الأصدقاء والأصحاب الذين يتجمعون بعد الحمام للجلوس في المقبل وجلسات السم، بعد يوم حافل في الحمام ويلي، بلحظات الفرح والمزح والتعرق الشديد في حرزاته الصدر والذي يفضلون فيها أهل صنعاء الرقص والغناء وبشكل

تاريخها

ارتبط تاريخها بالغزو العثماني على اليمن بحيث يوجد اعتقاد على أنه إرثاً تركياً برغم أن الدراسات والأكتشافات الأثرية دلت على وجود مباني لحمامات من قبل الألف الأول قبل الميلاد تعود للملوك السبئيين أي ما قبل وصول الأتراك بالآلاف السنين، باعتبار الحمامات في صنعاء انتشرت قبل ظهور الإسلام حيث كان اليمينيون يبنيونها بجوار معابدهم بغرض الطهارة من أجل العبادة، وذلك ساد اعتقاد أن القدماء، بنو الحمامات في معابد اليهود بعد أن رحلوا، ولا زالت بعض أسمائها تحمل اسم تلك المعابد، لذلك تعد هذه الحمامات من أبرز معالم مدينة صنعاء القديمة بما تحمله من طابع إنساني وحضاري وتاريخي بحيث استمرت في تادية عملها ودورها المجتمعي منذ حوالي مئات السنين بكل خصائصها ومميزاتها التي لم تضع مع تطور حركة العصر وظهور بدائل أخرى في المناطق الحديثة إلا أنها ظلت برويقها وعبقها التاريخي الذي خلق نوعاً من الانتماء الحضاري والتاريخي بمجرد أن يدخلها الشخص سواء كان أجنبي أو يمني فهي تحمل سمات التراثية والصنعانية الأصلية.

الحمام البخاري الشعبي

ويعتبر الحمام البخاري في معماري جميل بني بشكل هندسي يتناسب مع شكل الفن المعماري بصنعاء القديمة وبطريقة حرفية أصيلة تتناسب مع العمارة الصنعانية التي تتوافق مع مناخ وأجواء صنعاء، فهو بناء منفرد بحد ذاته وبشكل هندسي ذات ميزة يمنية خاصة ويعتبر بناء الحمامات تحت مستوى الأرض لا يظهر منها إلا السقف المبنى على هيئة قباب "خزائن" تكون بعدد غرف الحمام وتكون لها ثغرات صغيرة لينتقل الضوء عبر قمرات مكونة من الزجاج (البردي) يحول الرؤية لداخل الحمام، ويكون الحمام مبني على أساس متين مميز بالحجر الأسود البازلت والحيش الأسود الذي يساعد على اكتساب الحمام حرارته من القرن الكبير الذي يبني تحت الحمام، ويعلو القرن خزائن عظيم (الدست) مصنوع من النحاس مبني عليه الطوب الأحمر "الباجور" ينتقل إلى خزائن "المطس" الذي يتميز بأنه مصدر للمياه الساخنة الكلك خزائن الحمام وإلى جانبه حوض عميق آخر للمياه الباردة، ولدخول الحمام يكون بشكل نزول عبر ممر أو سلم حجري ثم المرور من باب مدخل الحمام، حيث توجد غرف الملابس بما يسمى "الملطع وبركة الشذروان" التي لم تعد موجودة في أغلب الحمامات في الوقت الحاضر، وتوجد غرفة مستطيلة الحجم تسمى (الملة) وهي مخزن للوقود الذي كان حتى عقد التسعينيات من القرن الماضي يستخدم فيه فضلات البشر والحيوانات كحماة للوقود التي كان يتم تجميعها من منازل صنعاء القديمة عبر مخارج للحمامات توجد أسفل المنازل، ويتم أخذها إلى ساحة تكون مكشوفة وقريبة من "الملة" وتسمى بالمضحي، ثم يتم إحراقها في القرن لأنها كانت أقل شئاً من الحطب إلى جانب أنها تساعد على نظافة المدينة للتخلص من مخلفات المنازل التي لم تكن تتوفر لها خدمة الصرف الصحي آنذاك إلى جانب أنها كانت مصدر للحرارة العالية، وحالياً استبدلتها الديزل والغاز كمصدر طاقة أسير مستطيلة الحجم تسمى (الملة) وهي مخزن من خلف الحمام عبر درجاة للوصول إلى القرن، أما بقية الخزائن (الغرف) والحمام وعلى رأسها (الصدر) وهي غرفة تتوسط خزائنتين أحدهما للمطس التي تكسب حرارتها من تسرب لهب القرن تحتها عبر فوهات خاصة، تمتد تحت الأرضية والجدران المصولة بالحيش وتساعد دفئها من مخارج محكمة نتيجة قربها من مصدر النيران بحيث يكون ترتيبه الأول بعد المكوث في خزائن المطس، الذي دائماً يقصده المتحممون لكي يكون العرق أكثر غزارة مستقيدين من حرارته العالي، ويكون ذلك قبل الخروج إلى الخزائن الأخرى المعتدلة وتلقى خدمات الحمام على يد عمال الحمام أو ما يسمى "الحمامي" الذي يقوم بالتدليك بالكيس واللبيغ والصابون، بحيث يكون "المتحممون" على شكل حلق حول الأحواض الحجرية الصغيرة التي تتواجد في ورايا الغرف أو الخزائن، والتي تزود المتحممون بالمياه عبر أنابيب ممتدة من المطس الذي يحتوي على المياه الباردة وتستخدم المياه الباردة عند الاعتسال النهائي الذي يتم في خزائن المطس قبل الخروج إلى "الملطع" الذي يعتبر مكان الملابس التي تكون بعيدة الحمامي، الذي يتولى التدليك والتكيس مقابل أجر معين، وفي الغالب تكون متناسبة مع إمكانات الناس، وتعتبر مهنة الحمامي مهنة يتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل ويتوارثون الأبناء من الآباء التي كانت تعنى بالسياحة ظل انشاء وزارة مستقلة للسياحية في العام ٢٠٠٦م بإجراء مسح ميداني للأماكن الأثرية داخل مدينة صنعاء القديمة وكانت الحمامات من أبرز المعالم السياحية والتاريخية التي بلغت هذه الحمامات حسب المسح إلى ثمانية عشر عاماً لعل أشهرها حمام ياسر وحمام المتوكل، وحمام الطواشي، وحمام الميدان، وحمام الجلاء، وحمام